من بغداد إلى "أور يهودا" اليهود العراقيون في إسرائيل

توماس شميدينكر

" أنا عراقي وولدت في العراق. لكني أيضاً إسرائيلي،" كرر أفراهام كحيلا ذلك في مكتبه الصغير الواقع في ضاحية "جيلو" في مدينة القدس. هنا، في هذه الضاحية وتحت واحدة من المعابد اليهودية الصغيرة، يوجد "بيت الحركة الصهيونية في العراق".

أفراهام، الذي قارب الثمانين من العمر، كان في شبابه عضواً في الحركة الصهيونية في العراق، وأراد أن يضع هنا، في هذه الضاحية، نصباً تذكارياً لأصدقائه ومكلاً صغيراً يضع فيه ما يذكره بالعراق، أو بالأحرى تاريخ الطائفة اليهودية. كان عمر أفراهام كحيلا اثنا عشر عاماً عندما حدث "الفرهود" عام 1941 في بغداد، وثمة حادثة عاشها أو تعايش معها أثرت في نفسه ودفعته إلى الانضمام الى الحركة الصهيونية. كحيلا لازال بتذكر كيف هجمت الجماعات المؤيدة لرشيد عالي الكيلاني على الحي اليهودي وبدأت النهب والسلب والقتل. "واحد من الجيران المسلمين أنقذ حياتنا، حيث عرض على والدي المجيء إليهم،" هكذا بدأ الرجل يقص علينا حكايته. "لكن والدي لم يطمئن لهذا الجار، فأخذ معه سكينة مخبأة تحت سترته. وفي الحقيقة كان هذا الجار رجلاً لطيفاً وقام بالسهر على راحتنا... هذا الرجل هو الذي أنقذ حياتنا من الموت." ويضيف كحيلا أيضاً أن أولاد سيد هذا البيت كانوا يذهبون إلى بيوت اليهود ويسرقونها، "في نفس الوقت الذي كنا فيه في رعاية العائلة". "طبعاً ربما يبدو ذلك غير معقول أو غير منطقي،"يقول معلقاً، "لكنني رأيتهم عند عودتهم إلى البيت وهم يحملون معهم أشياء من الحي اليهودي."

كان أفراهام قد التحق بحركة الشباب الصهيوني على أثر عمليات النهب والقتل التي تعرضت لها الطائفة اليهودية آنذاك. "نحن، الشباب اليهودي، كان كل واحد منا قد تعامل مع هذا الحدث، الذي ترك أثراً عميقاً في نفوسنا، كلاً على طريقته الخاصة. فبينما انضم البعض إلى الحزب الشيوعي، أملا في ثورة اشتراكية تسود فيها المساواة بين جميع أفراد المجتمع، كنت أنا وأصحابي نعتبر ذلك ضربا من الخيال وكنا نحمل قناعة في داخلنا أيضاً أنه لا مستقبل للطائفة اليهودية في العراق."

أما شيمون بالاس، البروفيسور في اللغة العربية وآدابها، الذي كان منتمياً إلى الحزب الشيوعي قبل أن يترك العراق ومن الذين كان لهم أمل في ثورة اشتراكية تسود فيها المساواة والعدالة الاجتماعية، فقد ذكر لنا، في شقته الواقعة في ضاحية من ضواحي تل أبيب أنه لم يكن للصهيونية أي دور أو تأثير على الطائفة اليهودية، على عكس ما يدعيه البعض اليوم في إسرائيل. "لقد اتجه أكثر الشباب اليهودي إلى الحزب الشيوعي العراقي،"موجهاً كلامه هذا ليس إلى افراهام كحيله فقط، وإنما كذلك للمشرفين على عرض "تاريخ اليهود العراقيين" في متحف "يهود بابل" في "أور يهودا"، الضاحية التي يسكانها أكثر اليهود العراقيين الذين نزحوا من العراق عام 1951، على أنه العودة من المنفي والخلاص من الاضطهاد منذ 2500 سنة. "لكن الحقيقة،" يقول بالاس، "هي أن الطائفة اليهودية، التي كانت واحدة من أقدم الطوائف العراقية، كانت تعتبر نفسها حتى عام 1941جزءاً من المجتمع العراقي ولم يخطر على بالها، حتى في الحلم، ترك العراق والذهاب إلى فلسطين. إلا أن المتحف المذكور أعلاه قد صوّر أو عكس -ولايزال يعكس- الانطباع بأن اليهود في العراق كانوا قد عانوا من الاضطهاد، كما عانى اليهود في أوربا، وهذا ليس صحيحا. فنحن عشنا قروناً سوية، جنباً إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين، حتى بداية ظهور حركة رشيد عالي الكيلاني التي قلبت موازين هذه العلاقة. ولو لم تكن تلك الانفجارات، التي كانت تحدث نتيجة رمي القنابل على المنشآت اليهودية، التي بدأت في عام 1950، لكان من المستحيل أن يهاجر هذا العدد الكبير من اليهود إلى إسرائيل." هذا ما يقوله شيمون بالاس. وبالفعل، لم يبق من الـ 130.000 اليهود العراقيين سوى 10.000. وبالاس متأكد بأن المخابرات الصهيونية هي التي كانت تقوم بعمليات تفجير القنابل، "بهدف إيثارة الرعب في نفوس الطائفة اليهودية ودفعها إلى ترك البلاد والهجرة إلى إسرائيل."

موردخاي بن ـ بورات، الذي كان المسؤول الأول في تنسيق عمليات هجرة اليهود العراقيين إلى إسرائيل، ينفي مثل هذا الاتهام الذي كان قد وُجّه له وللعاملين معه نفياً قاطعا. وموردخاي هذا، المولود في العراق عام 1923 والذي كان عضواً في الكنيست، لم يوجه له هذا الاتهام من قبل الجهات العراقية فقط، وإنما أيضاً من قبل أري أفنيري، محرر مجلة Haolam Hazeh. أفنيري يؤكد أن

موردخاي كان يقف وراء عمليات التفجير هذه. إلا أن موردخاي كان يحاول، ولا يزال، إبعاد هذه التهمة عنه بشتى الطرق منذ عام 1951، مما اضطره، في آخر الأمر، إلى إصدار كتاب بهذا الخصوص. وموردخاي هذا نفسه هو مدير متحف يهود بابل "Babylonian Jewish Heritage Center ".

رداً على الانتقاد الذي وجهه شيمون بالاس بأن المتحف "قد أهمل الكثير من أسماء اليهود العراقيين الذين لم تكن لهم أي علاقة بالحركة الصهيونية،" يقول موردخاي بن ـ بورات إنه قد "تمت إعادة النظر بخصوص هذه المسألة وتم تعين بعض الشيوعيين القدماء في مجلس إدارة المتحف، كما أضيفت أسماء أخرى إلى اللوحة التي كتبت عليها أسماء اليهود العراقيين الذين ذهبوا ضحايا العنف الذي جرى في ذلك الوقت."

ولم ينس مردخاي العراق، إذ قال أنه "سعيد جداً" لأن أمنيته قد تحققت، وهي أن "أرى سقوط صدام حسين قبل أن أموت." أما شيمون، فيتابع يومياً كل أخبار العراق وما يجري فيها من أحداث، وهو كذلك أعرب عن ارتياحه بسقوط صدام حسين، إلا أنه يحمّل الاحتلال الأمريكي مسؤولية تردي الأوضاع في العراق. "كنت مقتنعاً بأن العراق متوجه نحو نظام ديمقراطي، إلا أن سياسة الولايات المتحدة في السنوات الثلاث الأخيرة قد قوّضت مسيرة هذا التطور. لقد كان خطأً كبيراً وقعت فيه الإدارة الأمريكية، عندما قامت بحل الجيش وتسليم السلطة إلى قيادات دينية عنصرية. واليوم نقف أما ممارسات دينية-عنصرية يعرفها الجميع."

أفراهام كيهيلا، من جماعة "بيت الحركة الصهيونية في العراق"، أيضاً من الذين لا يزالون يتابعون ما يجري في العراق، وهو يشارك "شعور العراقيين في هذه المحنة." كيهلا كان يشغل منصب مستشار لمحافظ بلدية القدس السابق تيدي كوليك، وهو سياسي ينتمي إلى حزب العمال الإسرائيلي، ولا زالت له علاقات شخصية في العراق. إذ أن خالته، التي أحبت عراقياً مسلماً وهي في السابعة عشرة من العمر، قد تزوجت وبقت هناك وأسلمت، وهي لا زالت على قيد الحياة وتعيش في مدينة بغداد. وقد تمكن أفراهام من الاتصال بها بعد سقوط صدام، وكلما حدث انفجار في بغداد "أفكر بها."

يقول أفراهام كهيلا إنه حتى لو عم السلام في العراق فإنه لا يريد العودة إلى بغداد، بل زيارة الوطن القديم والعودة إلى الماضي الذي لا زال يشعر بالحنين إليه. وهذا، على ما يبدو، ما يتفق عليه هؤلاء الثلاثة على الرغم من اختلاف وجهات نظرهم السياسية.

في ضاحية "أور يهودا" هذه، التي يوجد فيها المتحف الذي شارك بتأسيسه بن ـ بورات وتسمع منه أغاني سليمة باشا (سليمه مراد)، ما زالت الموسيقى العراقية القديمة تسمع في المقاهي المنتشرة في الحي وما زال الرجال يلعبون "الدومنه" و "الطاولي" ويأكلون "شيش كباب"، ولا زال العجائز يتكلمون اللغة العربية، خصوصاً اللهجة العراقية، لكن أيضاً اللهجة اليهودية البغدادية.

في الآونة الأخيرة، بدأ اهتمام الشباب الذين ولدوا في إسرائيل وينحدرون من أصل عراقي بالبحث عن أصولهم العراقية. وقد غدت هذه ظاهرة كبيرة دفعت علماء الاجتماع إلى البحث فيها وتقديم الدراسات عنها، كما يؤكد على ذلك عالم الاجتماع يهودا شنهاف وساري باشي، التي ترك والدها العراق إلى إسرائيل عندما كان طفلاً، وبعد أن صار له أطفال هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها عادت ثانية إلى إسرائيل وهي تحمل شهادة في القانون وتعمل اليوم محامية في واحدة من منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان متولية الدفاع عن الفلسطينيين أمام المحاكم الإسرائيلية. لكنها، إلى جانب عملها هذا، بدأت منذ فترة تعلم اللغة العربية. الكثير من الشباب اليهودي اليوم يقول إنه من المؤسف حقاً أنهم لم يتعلموا اللغة العربية منذ طفولتهم، وأنهم بدؤوا يتعلمونها الآن على أيدي الفلسطينيين. تعلق ساري على هذا بقولها إنها "ليست لهجة عراقية، لكنها لغة عربية على أية حال."
- توماس شميدينكر صحفي يساري نمساوي مختص بقضايا الشرق اوسطية وخاصة العراق وصديق للاحزاب العراقي